الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وآثاره في تفسير القرآن الكريم

روايات تفسيرية مختارة

الشيخ الدكتور عماد الكاظمي
العتبة الكاظمية المقدسة، مكتبة الجوادين العامة، العراق
emadalkadhimi@yahoo.com

Imam Ali bin Mousa Al-Ridha (as) and his legacy in Quran Exegesis

Selected Exegetical Narrations

Sheikh Dr. Imad Al-Kadhimi
Jawadain Public Library , Kadhimain Holy Shrine , Iraq

الملخص:-

إنَّ للمسلمين تراثاً كبيراً حافلاً بما تحتاجه الإنسانية في أدوارِ حياتها المختلفة، ويُعَدُّ القرآن الكريم أساس ذلك الإرث الإسلامي؛ لأنه من عند الله تعالى العليم الحكيم، حيث جعل للبشرية نظاماً متكاملاً يحقق لهم سعادتهم ويهديهم إلى الصراط السوي في جميع تلك المجالات، وذلك من خلال تعاليمه التي تضمَّنَها القرآن الكريم وكذا السنة النبوية الشريفة.

فالقرآن الكريم هو الدستور السماوي الذي ينظم حياة المسلمين وشؤونهم؛ لأجل ذلك كان الاهتمام به تلاوةً وفهماً وتعلُّماً من أهمِّ أولويات المسلمين في التعامل مع كتاب ربهم في جميع العصور منذ اليوم الأول لنزولِ الوحي إلى يومنا، وقد كانت البذرة الأولى لذلك هي تلك التعاليم المقدسة التي كانت من قبل النبي ﷺ والتي حثت على تلاوة القرآنِ وفهم معانيه والتدبر في آياته واتّخاذه إماماً في كُلِّ مفاصل الحياة، فكانت سيرته ﷺ تجسِّدُ معاني القرآن الكريم حيث كان يؤكد ذلك الاهتمام من خلال تلاوة القرآن على أصحابه وتفسيره لهم آيةً آيةً، بل كلمةً كلمةً ليفهموا كلام الله أولاً، وليؤكد لهم على عظمته وقدسيته وأهميته في حياتهم، وتُعَدُّ هذه أولى أدوار تفسير القرآن الكريم والذي يُعرف اصطلاحًا بـ(التفسير بالمأثور)، ثم تابع ذلك بخطوات عدة منها الاهتمام الخاص ببعض أصحابه وأهل بيته في معرفةِ حقيقةِ القرآنِ وفهم أسرارهِ ومعانيه؛ لينشروا ذلك بين المسلمين، وقد تجلى هذا الاعتناء في كثرة الأحاديث الواردة حول القرآن الكريم، وما ورد عنهم في تفسير آياته كونهم عِدْلَ القرآنِ الكريم والأعرفَ بفهمِ مقاصدهِ ومعانيه..

نحاول إنْ شاء الله تعالى في صفحات هذا البحث بيان بعض ما ورد من الروايات التفسيرية للآيات المباركة الواردة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وقد تم اختيار آياتٍ سبع، وتقسيمها على مقدمة ومبحثين ثم خاتمة، كما وردت في التفاسير وكتب الحديث المعتمدة، وبيان ما يتعلق بها وعرضها على وفق منهج الثقلين.

الكلمات المفتاحية: الإمام الرضا، القرآن الكريم، التفسير بالمأثور، تفسير القرآن بالقرآن، أهل البيت، الصحابي، التابعي.

Abstract:-

Muslims have a great legacy, enriched with everything that humanity may need in its various stages, whilst the Holy Quran is deemed to be the basis of the Islamic legacy because the source is God, the All-Knowing, the All-Wise. It sets for mankind a complete system that ensures their happiness and leads them to the right path in every aspect of life through the teachings included in the Holy Quran and the Holy Sunna (Prophetic Traditions).

The Holy Quran represents the Heavenly Constitution which governs Muslims and their affairs. Therefore, it has been, throughout the ages since the first day of revelation, a top priority for Muslims to recite, understand and learn it. The first seed sown for that was the sacred teachings of the Prophet which emphasized the significance of reciting the Quran, understanding its texts, reflecting its verses and setting it as a beacon of guidance in every aspect of life. His daily life activities were, in fact, the incarnation of the Holy Qur'an meanings. He used to emphasize the significance of the Quran through reciting it to his companions, interpreting it verse by verse, or even word by word, so that they might understand the word of Allah, and be assured of its high status, sacredness, and importance in their lives. That was the first phase that the exegesis of the Holy Quran went through; known as (exegesis with reference to Sunna). Then, he followed that with more advanced steps when he singled his household and some of his companions out for some special knowledge and secrets of Holy Quran so that they would disseminate the same among other Muslims. That special care was manifested in the traditions on the Holy Quran and its interpretation abundantly reported by them, as they represent the truthful interpreters of Quran, and the most knowledgeable in understanding its meanings and connotations.

I will try in the pages of this study to touch on part of the exegetical narrations reported from Imam Ali bin Mousa Al-Ridha a. Seven verses have been selected for the study which is divided into two sections with an introduction and a conclusion, as considered in recognized exegeses and books of Hadith. Then, they are discussed by applying the standards of the Holy Book and Hadith.

Key words: Imam Ridha , Holy Qur'an , Legacy-Based Exegesis , Qur'an-Based Exegesis , Ahlul-Bayt , Companion , Tabie.

المبحث الأول

أثر التفسير بالمأثور في رفد التفاسير القرآنية وأقسامه

المطلب الأول

تعريف التفسير بالمأثور

أولاً: تعريف التفسير.

(لغة): قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م): الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه. من ذلك الفَسْرُ، يقال: فَسَرْتُ الشَّيءَ وفسَّرتُه[١].

(اصطلاحاً):

- قال الطبرسي (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م): التفسير كَشْفُ المُرادِ عَنِ اللفْظِ المُشْكِلِ[٢].
- قال السيد الخوئي (ت١٤١٣هـ/١٩٩٢م): إيضاحُ مُرادِ اللهِ تَعالى مِنْ كِتابِهِ العَزيزِ[٣].

إنَّ هذه التعريفات للتفسير اصطلاحاً تهدف إلى بيان أمرٍ عظيمٍ واحدٍ، وهو فهم الخطاب القرآني الذي خاطب الله تعالى به الإنسان؛ ليكون على بينةٍ من تشريع هذا الدستور الإلهي، الذي يهدف به إلى تنظيم حياة الإنسان، سواء الحياة الفردية أم الاجتماعية وما يتعلق بها..

ثانيًا: تعريف الأثر.

(لغة): قال الفراهيدي (ت١٧٠هـ/٧٨٦م): الأثرُ بقيةُ ما تُرى من كُلِّ شيء، وما لا يُرى بعدما يبقى عُلقة، وأَثْرُ الحديث: أنْ يأثِرَهُ قومٌ عن قومٍ، أي يُحَدِّثُ به في آثارهم، أي بَعدهم[٤].

(اصطلاحاً):

- هو ما كان أعم من الخبر والحديث. فيقال لكُلٍّ منهما. أثرٌ بأيِّ معنى اعتبر. وقيل: الأثر مساوٍ للخبر. وقيل: الأثر ما جاء عن الصحابي، والحديث ما جاء عن النبي، والخبر أعم منهما[٥].

بناء على ما تقدم يمكن القول: إنَّ المراد بمصطلح "التفسير بالمأثور" هو الذي رواه

الصحابة والتابعون عن النبي صلى الله عليه وآله، أو ما روى علماء الأثر عن الصحابة والتابعين أيضاً، مما يتعلق بالقرآن من كُلِّ الوجوه[٦].

أو هو ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل أولاً، ثم على ما نقل عن المعصوم، النبي صلى الله عليه وآله أو الأئمة من عترته الطيبين عليهم السلام، وبعده على المأثور من الصحابة الأخيار والتابعين لهم بإحسانٍ مما جاء بياناً وتوضيحاً لجوانب أُبهمت من القرآن[٧].

إذاً فكُلُّ ما ورد من تفسير القرآن الكريم عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام يُعَدُّ من التفسير بالمأثور كما اصطلح عليه العلماء والمفسرون، وفي ذلك من الأهمية الكبيرة التي يجب على كُلِّ مفسرٍ أنْ يراعيها إذا أراد أنْ يفسر كتاب الله تعالى؛ لأنهم خلفاء النبي صلى الله عليه وآله وأبناؤه وقد تربَّوا في مدرسة القرآن الكريم، وتلقَّوا معارفه وعلومه من مصدره، وقد أكَّدَ على هذا المعنى السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) في تفسيره من أهمية الاعتماد على الروايات التفسيرية عنهم في فهْمٍ سليمٍ للقرآن الكريم، فيقول: ((قد تبيَّن من البحوث السابقة أنَّ واجب المفسر هو ملاحظة الأحاديث الواردة في التفسير عن النبي صلى الله عليه وآله، وأئمة أهل البيت عليهم السلام، والغَوْر فيها؛ ليعرف طريقتهم، ثم يفسر القرآن الكريم بالمنهج الذي يستفاد من الكتاب والسنة، ويأخذ بالأحاديث التي توافق الكتاب ويطرح ما عداها))[٨]، وهذه من الكلمات المهمة التي تنطوي عليها معانٍ كبيرةٍ، ومنهجٍ علميٍّ دقيقٍ، للتعامل مع القرآن الكريم، فضلاً عن كونها رداً على الذين يتكلمون في القرآن بآرائهم البعيدة عن المنهج السوي، ويؤكد على ذلك الطباطبائي أيضاً بقوله: ((وقد تبيَّنَ أنَّ المتعيَّنَ في التفسيرِ الاستمدادُ بالقرآنِ على فهمِه وتفسيرِه الآية بالآية، وذلك بالتدرُّبِ بالآثارِ المنقولةِ عن النبي وأهل بيته "صلى الله عليه وعليهم" وتهيئةِ ذوقٍ مكتسبٍ منها، ثم الورود، والله الهادي))[٩].

والموروث الروائي التفسيري كثير جداً وقد تضمَّنته كتب الأحاديث والتفاسير، فالتفسير بالمأثور هو أول تفاسير المسلمين؛ حيث آعتمد الروايات المباركة في وقت مبكِّر لمعرفة مراد الله تعالى، والإمام الرضا عليه السلام له روايات في بيان ذلك، وهذه هي محاولة لاستقراء تلك الروايات وما يُفاد منها من موضوعات متعددة، وهذه الصفحات هي محاولة موجزة لاستنطاق الرواية التفسيرية في جهات متعددة، نرجو أنْ تكون ناجحة في بيان تلك الآثار الكبيرة للتفسير بالمأثور في رفد التفاسير القرآنية، آعتماداً على الروايات الواردت في الكتب الحديثية المعتبرة.

المطلب الثاني

أقسام التفسير بالمأثور

لقد ذكر العلماء في مؤلفاتهم أنَّ التفسير بالمأثور يمكن أنْ يشمل أقساماً أربعة من التفسير؛ للوصول إلى معرفة معنى قوله تعالى في كتابه الكريم في هذا النوع من التفسير، وهذه الأقسام هي:

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن.

وهذا أول وأهم نوع لبيان مراد كلام الله تعالى حيث لا شك أنَّ القرآن أنقى مصدرٍ لتبيين القرآن، بل يتفق المفسرون كما يرى الزركشي إنَّ أحسنَ طريقِ التفسير أنْ يفسر القرآنُ بالقرآن، فما أجملَ في مكانٍ فقد فصَّلَ في موضعٍ آخرٍ، وما اختصر في مكانٍ فإنه بُسِط في آخر(١٠).

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة.

إنَّ تفسير القرآن بالسنة من أصدق مصاديق التفسير بالمأثور بعد القرآن، إذ إنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ على أصحابه آيات القرآن الكريم ويبين لهم المعنى المراد من ذلك، كما قال تعالى في بيان إحدى وظائف النبي صلى الله عليه وآله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١١)، فيُعَدُّ هذا القسم هو النواة الأولى لتفسير كتاب الله تعالى كما تقدم.

ثالثاً: تفسير القرآن بكلامِ أهل البيت.

وهذا القسم هو جزء من القسم السابق، إذ إنَّ السنة تشمل ما يتعلق بالمعصوم مطلقاً، سواء كان نبياً أم إماماً، وقد أسس النبي صلى الله عليه وآله لهذا من خلال مواقف متعددة، وروايات مختلفة، وقيامه بإرشاد الأمة لاتِّباع أهل بيته عليهم السلام كما ورد في حديث الثقلين المتواتر في وجوب التمسك بهم، بل إنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان في حياته قد رعى أمير المؤمنين عليه السلام رعايةً كريمةً خاصةً كانت أولى آثارها كونه أعرف الناس بكتاب الله تعالى بعده، حيث ورد عنه عليه السلام قوله: ((سلوني، فوالله لا تسألون عن شيءٍ إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتابِ الله فوالله ما مِنْ آيةٍ إلا وأنا أعلمُ أبليلٍ نزلت أم بنهارٍ؟ أم في سهلٍ أم في جبلٍ؟))(١٢)، وسوف نعرض أمثلة ذلك من خلال تفسير الإمام الرضا عليه السلام لبعض آيات الكتاب المبين.

رابعاً: تفسير القرآن الكريم بقول الصحابي أو التابعي.

قد تبيَّن لنا ذلك مما مضى من أنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان يعلِّمُ أصحابه مراد كلام الله تعالى من القرآن الكريم وما يحتاجون إليه في حياتهم ونشر دعوتهم، حيث ورد في ذلك قول ابن مسعود: ((كان الرجلُ منَّا إذا تعلَّمَ عشرَ آياتٍ لم يجاوزهنَّ حتى يعلمَ معانيهنَّ والعملَ بهنَّ))[١٣] ولكن يشترط في الصحابي أو التابعي العدالة والوثاقة التي تشترط في غيره، وليس مجردَ صحبته تكفي للرجوع إليه مطلقاً.

فهذه هي أنواع التفسير بالمأثور كما أشار إليها العلماء في مؤلفاتهم قديماً وحديثاً، ولكن ينبغي علينا أنْ نشير إلى إنَّ هذا النوع من التفسير -المأثور- بالرغم من الإيجابياتِ التي يمكن الحصول عليها في التمسك بها كما تقدم في كلام الطباطبائي، إلا إنَّ هناك بعضَ السلبياتِ التي تدور حوله، ومن أهمها الوضع والكذب في الروايات بالنسبة لبعض الرواة ونسبتهم ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أو أصحابهم، لذا فإنَّ هذا النوع من التفسير يحتاج إلى علمٍ آخرٍ ومهمٍ، وهو علم الدراية لمعرفةِ صحةِ هذه الروايات التفسيرية، أو عدمها، عن طريق معرفة مستوى صحة النقل عن المعصوم عليه السلام بالنسبة لرواة تلك الأحاديث المفسرة للآيات المباركة، من حيث الوثاقة وعدمها؛ لتكون الفائدة منه كاملةً ومنهجيةً، والحق إنَّ كثيراً من التفسير بالمأثور يحتاج إلى تحقيقٍ وتدقيقٍ في سندِ ومتنِ روايتها، من قبل العلماء المحققين الذين يميِّزون الصحيح من غيره.

ولأهمية الرجوع إليهم عليهم السلام في تفسير كتاب الله تعالى آثرنا في هذا البحث المتواضع أنْ نعرِّج على ما أُثِرَ من التفسير عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام فاخترنا عدداً من الآيات المباركة التي تضمنتها تفاسير العلماء وكتب الحديث؛ لنكون على بينةٍ من تراث أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم.

المبحث الثاني

الروايات التفسيرية للإمام الرضا عليه السلام

وسوف نعرض في هذا المبحث آيات ست من القرآن وردت أحاديث متعددة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسيرها وبيانها، وسنذكر هذه الآيات المباركة وفقاً لتسلسلها في القرآن الكريم.

• **الآية الأولى:**

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(١٤).

- روي عن الإمام الرضا عليه السلام: في معنى قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: يعني أُسَمٌّ نفسي بِسِمَةٍ من سماتِ الله و هي العبادة.

قيل له: ما السمة؟

قال: العلامة(١٥).

يشير الإمام عليه السلام في هذا الحديث المعنى العام الذي يُفهم من تفسير هذه الآية المباركة، وهو أنَّ الإنسان إذا أراد الابتداء بعملٍ لله تعالى فعليه أنْ يُعلن ٱنتماءه وعبوديته له بعلامة يعرفه الآخرون من خلالها، قال السيد الطباطبائي في تفسيره بعد ذكره لحديث الإمام عليه السلام: ((وهذا المعنى كالمتولِّد من المعنى الذي أشرنا إليه في كون الباء للابتداء، فإنَّ العبد إذا وَسَمَ عبادته باسم الله، لزم ذلك أنْ يَسِمَ نفسه التي ينسبُ العبادة إليها بسمةٍ من سماته))(١٦).

وآية البسملة من أعظم آيات القرآن الكريم التي لها علاقة باسم الله الأعظم، فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: ((بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى ٱسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها))(١٧).

وللمفسرين والفقهاء من الإمامية والعامة كلام مُفَصَّل حول هذه الآية، وكونها جزءاً من كُلِّ سورة أو لا، وما يتعلق بذلك(١٨).

• **الآية الثانية:**

قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١٩).

- روي عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، قال: الختم هو الطبعُ على قلوبِ الكفارِ عقوبةً على كُفرهم، كما قال الله تعالى: ﴿بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢٠).

يشير الإمام عليه السلام في حديثه إلى عدم ٱنتفاع الكافرين بقلوبهم لتلقي الأنوار، والمعارف

الإلهية، والعقائدية بعد أنْ كفروا بالله تعالى، وقوله: "الختم هو الطبع" إشارة إلى المعنى المجازي للختم، وقد ذكر العلماء ذلك المعنى في مؤلفاتهم، قال أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ/٩٨٧م): ((قالوا: ختم على كذا يختِم والمصدر الخَتْمُ، وقالوا: طبعَ عليه بمعنى ختم عليه. والختمُ والطبعُ واحدٌ، وهما سمة وعلامة في قلب المطبوع على قلبه، وكما ختم على قلب الكافر وطُبع فَوُسِمَ بسمةٍ تعرف بها الملائكة كفره، كذلك وَسَمَ قلوب المؤمنين بسمات تعرفهم الملائكة بها كما عرفوا بها الكافر))[٢١].

قال الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ/١١٠٨م): ((الختم والطبع يقال على وجهين، مصدر ختمتُ وطبعتُ وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع. والثاني الأثر الحاصل عن النقش. ويتجوَّزُ بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب نحو: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾))[٢٢].

- **الآية الثالثة:**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢٣].

- روي عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليسَ من قولك: إنَّ الأنبياء معصومون؟

قال: بلى.

فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سأله أنْ قال له فأخبرني عن قول الله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قال الرضا: إنَّ الله تبارك وتعالى كان أوحى إلى إبراهيم: إنِّي متخذٌ من عبادي خليلاً، إنْ سألني إحياء الموتى أجبته، فوقع في قلب إبراهيم أنه ذلك الخليل، فقال: رَبِّ أرني كيف تحيي الموتى؟

قال: أَوَ لم تؤمن؟

قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي بالخلة[٢٤].

تشير الرواية إلى مقام عظيم من مقامات إبراهيم عليه السلام واتخاذه خليلاً من قبل الله تعالى، وهذا دليل على علوِّ مقامه من بين الأنبياء عليهم السلام، لأنَّ الخلة لا تكون إلا لَمنْ كان على منزلة رفيعة في عبادته وطاعته وتقربه لله تعالى.

قال الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م): ((والخِلَّة المودة، إما لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها، وإما لأنها تخلُّ النفس فتؤثر فيه تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها، يقال منه خاللتهُ مخالةً وخلالاً فهو خليل، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، قيل: سَمَّاهُ بذلك لافتقاره إليه سبحانه في كُلِّ حالٍ))[٢٥].

قال السيد الطباطبائي: ((واعلم: إنَّ الرواية لا تخلو عن دلالةٍ ما على أنَّ مقام الخلة يستلزم استجابة الدعاء، واللفظ يساعد عليه فإنَّ الخلة هي الحاجة، والخليل إنما يسمى خليلاً؛ لأنَّ الصداقة إذا كملت رفع الصديق حوائجه إلى صديقه، ولا معنى لرفعها مع عدم الكفاية والقضاء))[٢٦].

وقد تعرَّضت الرواية الشريف إلى عقيدة مهمة من عقائد المسلمين بالنسبة للأنبياء عليهم السلام وهي (العصمة)، وعقيدة الشيعة الإمامية قائمة على عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام مطلقاً، فعقيدتنا في العصمة -إجمالاً-: ((إنَّ الأنبياءَ معصومونَ قاطبةً، وكذلكَ الأئمةَ عن الذنوبِ والمعاصي صغائرِها وكبائرِها، وعنِ الخطأ والنسيانِ، لأنهُ لو جازَ أنْ يفعلَ المعصيةَ فإما أنْ يجبُ اتباعَهُ في فعلهِ الصادرِ منهُ عصياناً أو خطأً، أو لا يجبُ، فإنْ وجبَ اتباعَهُ فقد جوَّزنا فعلَ المعاصي برخصةٍ من الله تعالى، بل أوجبنا ذلكَ، وهذا باطلٌ بضرورةِ الدينِ والعقلِ، وإنْ لم يجبِ اتباعَهُ فذلكَ ينافي النبوةَ التي لابُدَّ أنْ تقترنَ بوجوبِ الطاعةِ أبداً))[٢٧].

وفي رواية أخرى في الآية:

- عن علي بن أسباط: إنَّ أبا الحسن الرضا عليه السلام سُئِل عن قول الله: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أكانَ في قلبه شك؟

قال لا. ولكن أراد من الله الزيادة[٢٨].

إنَّ الرواية الشريفة تنفي الشك والشبهة عن إبراهيم عليه السلام وتبيِّن تطلعه إلى زيادة الإيمان واليقين، وهذا أمر مهم للوصول إلى أقصى درجات العلم واليقين، ولذا عبَّرت الرواية بالقول: (ولكن أراد من الله الزيادة)، وفي بيان الإجابة على ذلك أورد السيد الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ/١٠٤٤م) أوجه متعددة محتملة، نذكر آثنين منها، إذ يقول: ((فإنْ قال قائل: أَوَ ليس هذا الكلام والطلب من إبراهيم عليه السلام يدلَّان على أنه لم يكن موقنًا بأنَّ الله تعالى يحيي الموتى وكيف يكون نبيًا مَنْ يشك في ذلك؟ الجواب: ليس في الآية دلالة على شك إبراهيم في إحياء الموتى، وقد يجوز أنْ يكون عليه السلام إنما سأل الله تعالى ذلك ليعلمه على وجه يبعد عن الشبهة، ولا يعترض فيه شك ولا ارتياب، وإنْ كان من قبل قد عَلَّمه على وجه للشبهة فيه مجال، ونحن نعلم أنَّ في مشاهدة ما شاهده إبراهيم من كون الطير حيًّا، ثم تفرقه، وتقطعه، وتباين أجزائه، ثم رجوعه حيًا كما كان في الحال الأولى من الوضوح وقوة العلم ونفي الشبهة ما ليس لغيره من وجوه الاستدلالات، ووجه آخر: وهو أنه يجوز أنْ يكون إبراهيم إنما سأل إحياء الموتى لقومه ليزول شكهم في ذلك وشبهتهم، ويجري مجرى سؤال موسى عليه السلام الرؤية لقومه، ليصدر منه تعالى الجواب على وجه يزيل منه شبهتهم في جواز الرؤية عليه تعالى، ويكون قوله ليطمئن قلبي على هذا الوجه، معناه أنَّ نفسي تسكن إلى زوال شكهم وشبهتهم، أو ليطمئن قلبي إلى إجابتك إياي فيما أسألك فيه. وكل هذا جائز، وليس في الظاهر ما يمنع منه))[٢٩].

- **الآية الرابعة:**

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٣٠].

- روي عن الريان بن الصلت عن الإمام الرضا عليه السلام: في حديثه مع المأمون والعلماء في الفَرق بين العترة والأمة، وفضل العترة على الأمة، وفيه قالت العلماء: هل فسَّرَ الله الاصطفاء في كتابه؟

فقال الإمام الرضا عليه السلام: فَسَّرَ الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في آثني عشر موضعًا - وذكر المواضع من القرآن-، وقال فيها: وأما الثالثة حين مَيَّزَ الله الطاهرين من خلقه، وأمر

نبيه بالمباهلة بهم في آية الابتهال، فقال عز وجل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾، قالت العلماء: عنى به نفسه.

قال أبو الحسن: غلطتُم، إنما عنى به "علي بن أبي طالب"، ومما يدل على ذلك قول النبي: لينتهينَّ بنو وليعة أو لأبعثنَّ إليهم رجلاً كنفسي يعني علي ابن أبي طالب، وعنى بالأبناء "الحسن والحسين"، وعنى بالنساء "فاطمة"، فهذه خصوصية لا يتقدمهم فيها أحد، وفضلٌ لا يلحقهم فيه بشرٌ، وشرفٌ لا يسبقهم إليه خلقٌ، إذ جعل نفس عليٍّ كنفسه[٣١].

وهذه الآية هي المشهورة بـ(آية المباهلة)، قال الراغب الأصفهاني: ((والبَهْلُ والابتهالُ في الدعاءِ الاسترسالُ فيهِ والتضرُّعُ نحو قوله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، ومَنْ فسَّرَ الابتهالَ باللعنِ فلأجلِ أنَّ الاسترسالَ في هذا المكانِ لأجلِ اللعنِ))[٣٢].

والمفسرون لهذه الآية المباركة قد أكَّدوا ما ورد في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام، وذكروا نزولها في حق أهل البيت عليهم السلام خاصة وفيها دلالة على مقامهم وفضلهم عند الله تعالى، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م): ((وروي أنهم [نصارى نجران] لما دعاهم [النبي] إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنَّ محمداً نبيٌّ مرسلٌ، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهَلَ قومٌ نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبتَ صغيرهم، ولئن فعلتم لتُهْلَكُنَّ فإنْ أبيتم إلا إلْفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتى رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) وقد غَدَا محتضنًا الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي، وعليٌّ خلفها، وهو يقول: إذا أنا دعوتُ فأمِّنُوا، فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهًا لو شاء الله أنْ يزيلَ جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأنْ نقرَّك على دينك ونثبت على ديننا قال: فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم. فأبوا. قال: فإني أُناجزكم. فقالوا: ما لنا بحربِ العرب طاقة، ولكن نُصالحك على أنْ لا تغزونا ولا تخيفنا ولا ترددنا عن ديننا على أنْ نؤدي إليك كُلَّ عام ألفي حلة، ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد. فصالحهم على ذلك وقال: والذي نفسي بيده، إنَّ الهلاك قد

تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كُلِّهِم حتى يهلكوا))[٣٣].

فالإمام الرضا عليه السلام يشير إلى فضل ومنزلة أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم من خلال آستشهاده بهذه الآية العظيمة من آيات القرآن الكريم، ويبيِّن مصاديق الألفاظ الآتية التي وردت في الآية المباركة (أبناءنا، نساءنا، أنفسنا) والتي كانت محور الأمر الإلهي في مباهلة المسلمين للنصارى، وهذه فضيلة من الله تعالى لهم في بيان حقيقتهم وكرامتهم عند الله تعالى، إذ جعلهم يشاركون مع نبيه صلى الله عليه وآله الدفاع عن عقيدة المسلمين والدعوة إلى عبادة الله تعالى، فكان النصر الإلهي المبين.

وقال الزمخشري بعد بيان ما تقدم حول الآية: ((فإنْ قلتَ: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه وذلك أمر يختصُّ به وبمن يُكاذبه، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلتُ: ذلك آكدُ في الدلالة على ثقته بحاله وآستيقانه بصدقه، حيث آستجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إنْ تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويُسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذكر على الأنفس؛ لينبِّهَ على لُطف مكانهم وقُرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مُقَدَّمون على الأنفس مُفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي "صلى الله عليه [وآله] وسلم"؛ لأنه لم يروِ أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك))[٣٤].

- **الآية الخامسة:**

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٣٥].

- روي عن أبان أنه دخل على أبى الحسن الرضا عليه السلام قال: فسألته عن قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

فقال: ذلك على بن أبي طالب عليه السلام ثم سكت.

قال: فلما طال سكوته قلت: ثم من؟

قال: ثم الحسن.

ثم سكت فلما طال سكوته قلت: ثم من؟

قال: الحسين.

قلت: ثم مَنْ ؟

قال: ثم على بن الحسين وسكت.

فلم يزل يسكت عند كل واحد حتى أعيد المسألة، فيقول حتى سَمَّاهم إلى آخرهم(٣٦).

إنَّ هذه الرواية المباركة تبيِّن ما يتعلق بإمامة الأئمة المعصومين عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله، وقد ذكرهم الإمام الرضا عليه السلام بما ورد عن آبائه عن جدهم عليهم السلام، وهذا يؤكِّد النصَّ على إمامتهم دون سواهم من الخلق أجمعين، بل هم المعنيون في الروايات المتعددة عن طرق العامة كما يذكر مسلم في صحيحه (ت٣٦١هـ/٩٧٠م) بألفاظ مختلفة: ((إنَّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش، وفي لفظ: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، كلهم من قريش، وفي لفظ: لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش))(٣٧).

والروايات في النص على الأئمة عليهم السلام في هذا الباب متعددة عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الأئمة عليهم السلام، نذكر بعضها إتماماً للفائدة:

- عن جابر بن عبد الله الأنصاري: لما أنزل الله عز و جل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قلت: يا رسول الله عَرفنا الله ورسوله فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال صلى الله عليه وآله: هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي، أَوَّلُهم علي ٱبن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر ستدركه يا جابر فإذا لقيته فاقرءه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سَمِيِّي محمد وكَنِيِّي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ٱبن الحسن ٱبن علي، ذاك الذي يفتح الله تعالى ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيه على القول بإمامته إلا من ٱمتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت له يا رسول الله فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته.

فقال صلى الله عليه وآله: إي والذي بعثني بالنبوة إنهم يستضيؤون بنوره، وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس و إنْ تجلاها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سرِّ الله، ومخزون علم الله، فاكتمه إلا عن أهله[٣٨].

- عن جابر الجعفي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

قال: الأوصياء. وفي رواية: علي بن أبي طالب و الأوصياء من بعده[٣٩].

- عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: هي في عليٍّ وفي الأئمة، جعلهم الله مواضع الأنبياء، غير أنهم لا يحلون شيئًا ولا يحرمونه[٤٠].

وقد أجاد العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسيره بيان الأقوال المختلفة في الآية وردِّها، إلى أنْ قال بعد ذلك: ((ولنرجع إلى أول الكلام في الآية: ظهر لك من جميع ما قدمناه أنْ لا معنى لحمل قوله تعالى: (وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) على جماعة المجمعين من أهل الحلِّ والعقد، وهي الهيئة الاجتماعية بأيِّ معنًى من المعاني فَسَّرناه، فليس إلا أنَّ المراد بـ ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ آحادٌ من الأمة، معصومون في أقوالهم، مفترضٌ طاعتهم، فتحتاج معرفتهم إلى تنصيصٍ من جانب الله سبحانه من كلامه، أو بلسان نبيه، فينطبق على ما روي من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام

أنهم هم، وأما ما قيل: إنَّ "أولي الأمر" هم الخلفاء الراشدون، أو أمراء السرايا، أو العلماء المتبعون في أقوالهم وآرائهم، فيدفع ذلك كله أولاً: إنَّ الآية تدل على عصمتهم، ولا عصمة في هؤلاء الطبقات بلا إشكال، إلا ما تعتقده طائفة من المسلمين في حَقِّ عليٍّ عليه السلام، و ثانيًا: إنَّ كُلاً من الأقوال الثلاث [التي تقدمت في التفسير] قولٌ من غير دليل يدل عليه))[٤١].

- **الآية السادسة:**

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٤٢].

- روي عن الحسين بن خالد قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله فما معنى قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾.

قال عليه السلام: لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه[٤٣].

في هذه الآية المباركة يبيِّن الإمام عليه السلام ما يتعلق بإحدى المسائل العقائدية المهمة عند المسلمين وهي "الشفاعة"، وقد فصَّلت الكتب الكلامية ما يتعلق بموضوع الشفاعة وصوره وآثاره والمُشَفَّعين والمُشَفِّعين، قال السيد الطباطبائي في تفسير الآية: ((وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ تعرَّضَ لشفاعتهم لغيرهم، وهو الذي تعلَّقَ به الوثنيون في عبادتهم الملائكة كما ينبىء عنه قولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[٤٤]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[٤٥]، فَرَدَّ تعالى عليهم بأنَّ الملائكة إنما يشفعون لمن ارتضاه الله، والمراد به ارتضاء دينه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٤٦]، فالإيمان بالله من غير شرك هو الارتضاء، والوثنيون مشركون، ومن عجيب أمرهم أنهم يشركون بنفس الملائكة الذين لا يشفعون إلا لغير المشركين من الموحدين))[٤٧].

وفي حديث آخر عن الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ لم يؤمنْ بحوضي فلا أوردهُ اللهُ حَوْضِي ومَنْ لم يؤمنْ بشفاعَتي فلا أنالهُ اللهُ شفاعَتي، ثم قال صلى الله عليه وآله: إنما شفاعتي لأهلِ الكبائرِ من أُمَّتي، فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل[٤٨].

ومن أعظم الآيات التي دلَّتْ على الشفاعة وأكدتها كما ذكرت الروايات وذكرها

المفسرون، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٤٩] فقد ورد في تفسيرها عن سماعة ابن مهران عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: يقومُ الناسُ يومَ القيامةِ مقدارَ أربعينَ عاماً ويؤمر [بـ] الشمس، فتركب على رؤوس العباد، ويلجمهم العَرق، ويؤمر [بـ] الأرض لا تقبل من عرقهم شيئًا، فيأتون آدمَ فيستشفعون منه فَيَدُلُّهُم على نوحٍ، ويدلُّهُم نوحٌ على إبراهيم، ويدلُّهُم إبراهيمُ على موسى، ويدلُّهُم موسى على عيسى، ويدلُّهُم عيسى فيقول: عَلَيكُمْ بمحمدٍ خاتمِ البشرِ فيقول محمد صلى الله عليه وآله: أنا لها فينطلقُ حتى يأتيَ بابَ الجنةِ فيدقّ فيقال له: من هذا؟ واللهُ أعلم.

فيقول: محمد.

فيقال: أفتحوا له فإذا فتحَ البابَ استقبلَ ربَّهُ فخرَّ ساجداً فلا رفعَ رأسَهُ حتى يقال له: تكلَّم وسَلْ تُعْطَ، واشفعْ تُشَفَّع.

فيرفعُ رأسَهُ ويستقبل ربَّهُ فيخرُّ ساجداً.

فيقال له مثلها.

فيرفع رأسه حتى إنه ليشفعَ مَنْ قد أُحرق بالنار، فما أحدٌ من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد صلى الله عليه وآله وهو قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٥٠].

قال السيد الطباطبائي في تفسيره بعد ذكره لهذه الرواية ما نصه: ((وهذا المعنى مستفيض مروي بالاختصار والتفصيل بطرق متعددة من العامة والخاصة، وفيها دلالة على كون المقام المحمود في الآية هو مقام الشفاعة، ولا ينافي ذلك كون غيره صلى الله عليه وآله من الأنبياء، وغيرهم جائز الشفاعة؛ لإمكان كون شفاعتهم فرعاً لشفاعته فافتتاحها بيده صلى الله عليه وآله))[٥١].

- **الآية السابعة:**

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[٥٢].

لقد وردت روايتان في تفسير هذه الآيات المباركة عن الإمام الرضا عليه السلام، تبين حقيقة القول في تفسير الآيات المباركة وما يتعلق بها، وهاتان الروايتان:

- الأولى: روي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ قال: فرداً لا مثل لك في المخلوقين فآوى الناس إليك، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي ضالة في قومٍ لا يعرفون فضلك فهداهم إليك، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ تعول أقوامًا بالعلم فأغناهم بك(٥٣).

- الثانية: روي عنه في مجلس المأمون أنه قال: قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ يقول: ألم يجدك وحيداً فآوى الناس إليك؟ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني عند قومك (فَهَدَى) أي هداهم إلى معرفتك؟ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ يقول: أغناك بأنْ جعل دعاءك مستجاباً؟

فقال المأمون: بارك الله فيك يا ابن رسول الله(٥٤).

وهذه الآية ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ من الآيات المباركة التي وردت في تفسيرها وتوجيهها أقوال متعددة، والإمام الرضا عليه السلام يشير إلى تفسير يتلاءم مع الاعتقاد بعصمة الأنبياء عليهم السلام، ومما هو ينطبق عليه في واقع رسالته الشريفة، إذ ألتفَّ حوله المسلمون فصار لهم كالأب الرحيم الذي يعطف على أبنائه، فيرشدهم إلى الصلاح والتقوى، ويُعلِّمهم أحكام الله تعالى التي تُنجيهم من ظلمات الجاهلية بعد أنْ كان يتيماً بينهم، قال تعالى في بيان فضله ومَنِّه على الأمة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٥٥)، فلا يمكن أنْ يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الضلال والانحراف مقابل الهداية؛ لأنَّ هذا مما لا يليق بمقام الأنبياء وعصمتهم كما تقدم.

وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرةً في تفسير (الضلال) بعضها لا يمكن قبوله بسهولة، وبعض آخر يستحيل قبوله؛ لعدم ملائمة لمقام النبوة، ولكن وردت أقوال أخرى يمكن أنْ تكون ملائمة لتفسير ذلك، ذكر الفخر الرازي في تفسير هذه الآية المباركة عشرين قولاً، منها مما لا يُقبل، ومنها ما يستحيل قبوله، ولكن من الأقوال التي يمكن ترجيحها لتفسير الآية هو القول الخامس والسادس، إذ يقول فيهما: ((وخامسها: يُقال: ضَلَّ الماءُ في اللبنِ إذا صارَ مغموراً، فمعنى الآية كُنْتَ مغموراً بين الكفار بمكةَ فَقَوَّاكَ اللهُ تعالى حتى

أظهرتَ دينَهُ. وسادسها: العربُ تُسَمِّي الشجرةَ الفريدةَ في الفلاة ضالةً، كأنه تعالى يقول: كانتْ تلكَ البلادُ كالمفازة ليس فيها شجرةٌ تحملُ ثمرَ الإيمان بالله ومعرفته إلا أنتَ، فأنتَ شجرةٌ فريدةٌ في مفازةِ الجهلِ، فوجدتُكَ ضالاً فهديتُ بكَ الخَلْقَ، ونظيره قوله عليه السلام: "الحكمة ضالة المؤمن"))[٥٦].

أما العلامة الطبرسي فقد نقل أقوالاً سبعة، أهمها القول السابع الذي فيه من مضمون حديث الإمام الرضا عليه السلام فقال: ((وسابعها: إنَّ المعنى وجدكَ مضلولاً عنكَ في قومٍ لا يعرفونَ حقكَ، فهداهم إلى معرفتكَ، وأرشدهم إلى فضلكَ، والاعتراف بصدقكَ، والمراد: إنكَ كنتَ خاملاً لا تُذْكَرُ ولا تُعْرَف، فعرَّفَكَ اللهُ الناسَ حتى عرفوكَ وعظَّموكَ))[٥٧].

هذا ما حاولت بيانه بإيجاز حول الروايات التفسيرية للإمام الرضا عليه السلام فأرجو أنْ تكون قراءة قرآنية جديدة لذلك التراث الروائي العظيم.

الخاتمة:

١- إنَّ للأئمة عليهم السلام تراثًا روائيًا عظيمًا قد تضمنته المجموعات الحديثية، ويحتاج إلى دراسته في جوانبه المتعددة؛ لنصل إلى جوانب معرفية تتلاءم مع الأدلة العقلية والنقلية في أستقراء المعرفة التامة لحاجة البشرية.

٢- لقد كان للإمام علي بن موسى عليه السلام أثر كبير في تربية وإعداد جيل من الرواة لهم القدرة على إيصال علوم الثقلين إلى الأمة، من خلال المنهج القويم لمدرسة أهل البيت في التعامل مع النص القرآني.

٣- إنَّ الباحث في نصوص الروايات الشريفة التي تضمنت تفسير آية مباركة يرى أنَّ بإمكانه الإفادة من هذه الرواية في أبواب معرفية متعددة أخرى غير التفسير، وهذا ما كان المنهج المراد الوصول إليه في هذه الدراسة.

٤- إنَّ التفسير بالمأثور يعد المادة الأولى الأساس لكُلِّ مفسِّرٍ للقرآن الكريم، لا يمكنه تجاوزه؛ لما تضمنه من روايات لها علاقة بأسباب النزول، ومصاديقه، وأحكام خاصة معينة؛ لذا يجب على الباحثين دراسة ذلك التراث على وفق منهج علمي محدد، يمكن الإفادة فيه من جوانبه المختلفة.

٥- حاول الباحث أنْ يجعل الرواية التفسيرية إنطلاقة معرفية له في أبوابها المختلفة من خلال هذه الأمثلة المعينة في العقيدة؛ ليفتح المجال أمام الباحثين في الغور بهذا التراث الكبير، ويرى أنه قد حقق جزءاً معيناً من الانفتاح المعرفي في الروايات التفسيرية، وأوقد شمعة في طريق الباحثين للإفادة من ذلك على وفق المنهج الذي أعده له.

٦- يرى الباحث أهمية الاعتماد على الكتب الحديثية الموثوقة في الروايات التفسيرية، وأهمية معالجة الرواية على قدر المستطاع وفق علمي الحديث والرجال؛ لتكون الدراسة قد اعتمدت المنهج العلمي إجمالاً تارة، وتفصيلاً تارة أخرى في المعرفة الإنسانية عامة.

هوامش البحث

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة مادة (فسر).
(٢) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن ج١ ص٣٥.
(٣) الخوئي ص٤١٩ ، ونكتفي بهذه التعريفات الواردة؛ لأنَّ التعريفات الأخرى التي أوردها العلماء تلتقي ضمن هذه الإطار العام لمفهوم التفسير.
(٤) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين مادة (أثر).
(٥) جديدي نزاد، محمد رضا، معجم مصطلحات الرجال والدراية ص١٤.
(٦) الأمين، إحسان، التفسير بالمأثور وتطوره عند الشيعة الإمامية ص٢٢.
(٧) الأمين ص٧٧.
(٨) الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الإسلام ص٧٠.
(٩) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ج٣ ص١٠١.
(١٠) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن ج٢ ص١١٣. معرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن ج١٠.
(١٠) المصدر نفسه ج١٠ ص ٢٣.
(١١) سورة الجمعة: الآية ٢.
(١٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن ج٤ ص٢٠٤.
(١٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) ج١ ص٨٠ .

(١٤) سورة الفاتحة: الآية ١.

(١٥) الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢ ص٢٣٦.

(١٦) الميزان في تفسير القرآن ج١ ص٢٥.

(١٧) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي ج١ ص٢١.

(١٨) للتفصيل ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن ج١ ص٢٤ ، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج١ ص٤٥ ، الخوئي ص٤٦٥.

(١٩) سورة البقرة: الآية ٧.

(٢٠) الحر العاملي، محمد بن الحسن، الفصول المهمة في أصول معرفة الأئمة ج١ ص٣٢٩.

(٢١) الحجة للقراء السبعة ج١ ص٢١٩ ، وله تفصيل مهم ولطيف في لفظ الختم وما يتعلق به .

وقد ورد المعنى البلاغي للآية: إنَّ إسناد الختم إلى القلوب أستعارة تمثيلية، فقد شبَّهت قلوبهم في نبوِّها عن الحق وعدم الإصغاء إليه بحال قلوب ختم الله عليها، وهي قلوب البهائم، وهو تشبيه معقول بمحسوس)). الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه ج١ ص٤٣.

(٢٢) مفردات غريب القرآن مادة (ختم) ، وقال الطبرسي في تفسيره "مجمع البيان في تفسير القرآن": الختم نظير الطبع، يُقال: طبع عليه بمعنى ختم عليه، ويُقال: طبعه أيضاً بغير حرف، ولا يمتنع في ختم ذلك. ج١ ص٩٥.

(٢٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٢٤) وقد أختلفت الروايات في ذكر الطيور الأربعة التي أخذها إبراهيم عليه السلام على أنواع متعددة، ولكن أشترك في كُلٍّ تلك الروايات "الطاووس"، فقد ورد في الروايات: النسر والبط والطاووس والديك، وفي بعضها: إنها الهدهد والصرد والطاووس والغراب، وفي بعضها: إنها النعامة والطاووس والوزة والديك، وفي بعضها: إنها الغرنوق والطاووس والديك والحمامة.

(٢٥) المفردات في غريب القرآن، (خِل).

(٢٦) الميزان في تفسير القرآن ج٢ ص٣٨٥.

(٢٧) المظفر، محمد رضا، عقائد الإمامية ص٧١ ، وللتفصيل ينظر: الشريف المرتضى، علي بن الحسين، تنزيه الأنبياء ص١ ، العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ص١٥٥.

(٢٨) تفسير العياشي ج١ ص١٤٣.

(٢٩) تنزيه الأنبياء ص٣٢-٣٣.

(٣٠) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٣١) الصدوق، عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام ج٢ ص٢١.

(٣٢) المفردات في غريب القرآن (بهل).

(٣٣) تفسير الكشاف ج١ ص٣٩٤-٣٩٥.
(٣٤) تفسير الكشاف ج١ ص٣٩٤-٣٩٥.
(٣٥) سورة النساء: الآية ٥٩.
(٣٦) تفسير العياشي ج١ ص٢٥٢.
(٣٧) الجامع الصحيح مسلم ج٦ ص٢ ، ومن أغرب ما ورد في تفسير الاثني عشر ما ذكره ابن تيمية في أراجيفه، إذ عَدَّ يزيد بن معاوية من هؤلاء الخلفاء الذين أعزَّ الله بهم الدين، فليُتَأمَّلُ في كلامه ليُعرف مدى النُّصْبِ والعداء لأهل البيت عليهم السلام، فيقول في منهاجه: ((ولفظ البخاري اثنى عشر أميراً، وفي لفظ لا يزال أمر الناس ماضيًا ولهم اثنا عشر رجلاً، وفي لفظ لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة كلهم من قريش، وهكذا كان فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم تولى من اجتمع الناس عليه وصار له عز ومنعة معاوية وابنه يزيد، ثم عبد الملك وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز، وبعد ذلك حصل في دولة الإسلام من النقص ما هو باق إلى الآن)). منهاج السنة النبوية ج٨ ص٢٣٨.
(٣٨) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة ص٢٥٢.
(٣٩) تفسير العياشي ج١ ص٢٥٣.
(٤٠) المصدر نفسه ج٢ ص٢٥٢.
(٤١) الميزان في تفسير القرآن ج٤ ص٤٠٩.
(٤٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.
(٤٣) الصدوق، الأمالي ص٥٦.
(٤٤) سورة يونس: الآية ١٨.
(٤٥) سورة الزمر: الآية ٣.
(٤٦) سورة النساء: الآية ٤٨.
(٤٧) الميزان في تفسير القرآن ج١٤ص٢٧٨ ، وللتفصيل ينظر: المصدر نفسه ج١ص١٥٤-١٧٤، السبحاني، جعفر، الإلهيات ج٤ ص٣٣٧-٣٦٢.
(٤٨) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢ ص١٢٥.
(٤٩) سورة الإسراء: الآية ٧٩.
(٥٠) تفسير العياشي ج٢ ص٣١٥.
(٥١) الميزان في تفسير القرآن ج١ ص١٧٦.
(٥٢) سورة الضحى: الآيات ٦-٨.
(٥٣) الطبرسي ج١٠ص٣٨٤.
(٥٤) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢ ص١٧٧.
(٥٥) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٥٦) الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين مج١١ ص١٩٧-١٩٩.
(٥٧) مجمع البيان في تفسير القرآن ج١٠ ص٣٨٤.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

١. الأمين، إحسان (الدكتور)، التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٢. آبن تيمية الحراني، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨هـ/١٣٢٨م)، منهاج السنة النبوية،، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، (ط١، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦م، د.م).

٣. جديدي نزاد، محمد رضا، معجم مصطلحات الرجال والدراية، (ط٢، مط دار الحديث، الناشر: دار الحديث، قم، ١٤٢٤هـ).

٤. الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت١١٠٤هـ/١٦٩٣م)، الفصول المهمة في أصول معرفة الأئمة، تحقيق وإشراف: محمد بن محمد الحسين القائيني، (ط١، قم، مط نكين، ١٤١٨هـ).

٥. الحلي، الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر (العلامة) (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م): كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، قدم له وعلق عليه: الشيخ جعفر السبحاني، (ط٢، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، ١٤٢٤هـ).

٦. الخوئي، أبو القاسم (السيد) (ت١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، البيان في تفسير القرآن، (مط العمال المركزية، بغداد، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م، د.ط).

٧. الدرويش، محيي الدين (ت: إعراب القرآن الكريم وبيانه، (مط سليمان زاده، الناشر: كمال الملك، قم، ط٢، ١٤٢٨هـ).

٨. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م)، المفردات في غريب القرآن، ضبط: هيثم طعيمي، (ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨م).

٩. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ/١٣٩٢م)، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل، (المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م، د.ط).

١٠. ابن زكريا، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، معجم مقاييس اللغة، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، (مط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، د.ط).

١١. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (تفسير الكشاف)، تح: عبد الرزاق المهدي، (ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٢١هـ ٢٠٠١م).

١٢. السبحاني، جعفر (الشيخ)، الإلهيات، (ط٦، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، ١٤٢٦هـ).

١٣. السيوطي، جلال الدين (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (مط العصرية، بيروت، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، د.ط).

١٤. الشريف المرتضى، أبو القاسم علي بن الحسين (ت٤٣٦هـ/١٠٤٤م)، تنزيه الأنبياء، (ط٣، مط الحيدرية، النجف، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م).

١٥. الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (الشيخ) (ت٣٨١هـ/٩٩١م)، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، (ط١، مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٧هـ).

١٦. ـــ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسن الأعلمي، (ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م).

١٧. ـــ، معاني الأخبار، تصحيح: علي أكبر الغفاري، (مؤسسة النشر الإسلامي، بيروت، ١٣٧٩هـ، د.ط). كمال الدين وتمام النعمة

١٨. الطباطبائي، محمد حسين (السيد) (ت١٤٠٣هـ/١٩٨٢م)، القرآن في الإسلام، ترجمة السيد أحمد الحسيني، (ط١، مط سرور، الناشر مؤسسة المحبين للطباعة والنشر، قم، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م).

١٩. ـــ، الميزان في تفسير القرآن، تص: الشيخ حسين الأعلمي، (ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م).

٢٠. الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)، مجمع البيان في تفسير القرآن،، تح: لجنة من العلماء والمحققين، قدّم له: السيد محسن الأمين العاملي، (ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م).

٢١. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٩٢م)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تح: محمود محمد شاكر، (دار ابن الجوزي، مصر، ٢٠٠٩م، د.ط).

٢٢. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (الشيخ) (ت٤٦٠هـ/١٠٦٨م)، التبيان في تفسير القرآن، تح: أحمد حبيب قصير العاملي، (ط١، مط مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٩هـ).

٢٣. العياشي، محمد بن مسعود (ت٣٢٠هـ/٩٣٢م)، تفسير العياشي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، (المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، د.ط، د.ت).

٢٤. الفارسي، أبو علي الحسن بن عبد الغفار (ت٣٧٧هـ/٩٨٧م)، الحجة للقراء السبعة، تح: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، (ط١، دار المأمون للتراث، بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م).

٢٥. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ/٧٨٦م)، العين، تح: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، تص: أسعد الطيّب (ط٢، مط أسوة، قم، ١٤٢٥هـ).

٢٦. الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م): التفسير الكبير، تص: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م).

٢٧. القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٣٦١هـ/٩٧١م)، الجامع الصحيح، (دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت).

٢٨. المظفر، محمد رضا (الشيخ) (ت١٣٨٣هـ/١٩٦٤م)، عقائد الإمامية، تحقيق: عبد الكريم الكرماني، (ط١، مؤسسة الرافد، بغداد، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م).

٢٩. معرفة، محمد هادي (الشيخ) (ت١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، التمهيد في علوم القرآن، (ط٢، مط ستاره، قم، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٩م).